

## تفسير التاريخ : مطلب إنسانى تخلف فيه المسلمون

منذ خمسة قرون، والبحث عن المنهج التاريخى الأصلى لكتابة التاريخ الإنسانى، وتفسير التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا .

ويعتبر العالم الإسلامى - للأسف الشديد - نشازاً فى هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخى لا يهتم - إلا فى القليل - بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ .

والنظر إلى قائمة الأطروحات العلمية التى قدمت فى جامعات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة - بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين - يؤكد هذه الحقيقة !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق، بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى ؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه ؛ ففضلاً على عبثية هذه المقولة فى ظل الأساليب الحضارية المعاصرة، فإنها أيضاً مقولة لا نخدمنا، حتى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لا بد أن نبحث فى بنائنا الداخلى، وفى تطوير كياننا، وفى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا، وفى فقه سنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء، ولا سبيل لبقاءنا فى هذا العالم إلا عن هذا الطريق .

إن تشريحاً قوياً يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا فى التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعتراف بالحقيقة كما هى، وفى تقويم

هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التي نؤمن بأنها (المطلق) و (المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية .

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكناً كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، إن المنهج العلمي لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً)، وقبولها دراية (عقلاً) .

وقد أصبح فقه البيئة الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة والحكم عليها . . . ومهما يكن لتفسير التاريخ من كيان مستقل فإن أجزاء كثيرة منه - على الأقل في معطياته الأولى - ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تفصل عنها . . .

إن هذه مسلمة قرآنية أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً !!

### توظيف المنهج التاريخي وفلسفة التاريخ

كان أول عمل للمؤرخين المسيحيين هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعلاقته، وهم يعنون به (التاريخ اليهودي والمسيحي معاً)، وبذلك غدا التطور التاريخي لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيس في تاريخ الماضي بأسره، بينما وصفت الأحداث التاريخية التي دونتها سجلات الأمم الوثنية في صورة عرضية ثانوية<sup>(١)</sup>، ولما جاءت الحركة الإنسانية وظهر تأثيرها العام على الكتابة التاريخية بدأ الاهتمام يتجدد بالأدب الوثني، والتاريخ الوثني، هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل في تضاؤل عنصر المعجزات في عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً على تضاؤل (الآثار العاطفية) (للملحمة المسيحية)، ومع ذلك لا ينبغي أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين، أو المتشككين في الديانة المسيحية وإنما الغالب أنهم تجاهلوا - ولم ينكروا - مزاعم اللاهوت والجدل الديني، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى تأثير النزعة الكاثوليكية .

(١) هارى المرانز، ترجمة محمد عبد الرحمن برج : تاريخ الكتابة التاريخية ٧٠ / ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤م .

وهكذا قدر للتاريخ الوثني أن يستعيد - إلى حد ما - مكانته البارزة التي فقدتها على أيدي الكتاب المسيحيين بصفة عامة (١) .

وكان ظهور «مارتن لوثر» عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ، بل إن حركة الإصلاح الديني بقيادة (كالفن) و (لوثر) أعطت الجهد البشري في تفسير التاريخ تقديراً أقل مما أعطته الكنيسة في سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هي صاحبة المقام الأكبر والأول في مقام البحث التاريخي، بل إن التاريخ العالمي صُوِّرَ مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان (٢) .

«وغنى عن القول أن إحياء النزعة الدينية في مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التي لمسناها في كتابات بعض المؤرخين أمثال «جويكورديني»؛ بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الديني في كتابة التاريخ؛ وهو الاتجاه الذي كانت تمثله المدرسة الفلورنسية . كذلك ترتب على إحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضي، وهو الأمر الذي أضنى «بولبيوس» نفسه من أجله، ذلك لأن التاريخ في تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية معرفية تأويلية متعصبة بدرجة لا تقل عنفاً عما كان عليه أيام القديس «أوغسطين» وتلاميذه : وبعبارة أخرى فإن النظرة إلى الماضي في ذلك العصر جعلت (ترسانة) شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها في تشويه صورة خصومهم . كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التي أحيها خيرة كتاب المدرسة الإنسانية؛ وذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد في الماضي ما يؤيد وجهة نظره، بينما يبذل جهده في أن يظهر معارضيه في أقبح صورة» (٣) .

(١) المرجع السابق، ص : ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) المرجع السابق، ص : ١٧٦ .

وخلال القرنين - التاسع عشر ومطلع العشرين - لمعت أسماء من أمثال (فردريك شبلنج ت ١٨٤٥ م) الذي كان متأثراً إلى حد كبير بأراء فيخته (الذي كان مؤمناً إيماناً شديداً بتفوق الجنس الألماني)، ثم (فردريك شليجل ت ١٨٢٩ م)، مع تركيز على العامل الديني الكاثوليكي، ثم - في نهاية هذه المرحلة - ظهر (ويلهلم هيجل) الذي كانت الدوافع القومية واضحة وراء فلسفته بطريقة تتضح أكثر من فيخته، فقد صرح (هيجل) في فلسفته بأن الألمان قد عهد الله إليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية إلى الجنس البشرى<sup>(١)</sup>.

وقد ظهرت إلى جانب ذلك مدارس فرنسية وإيطالية وإنجليزية وبلجيكية وأمريكية في تفسير التاريخ (فيكتور كوزين ت ١٣٦٧ م فرنسي، ثيودور جوفروي ت ١٨٤٢ م فرنسي، تيرجو الذي سبق كونت في تقسيمه الشهير للتقدم على ثلاث مراحل: اللاهوتية، والميتافيزيقية، والعلمية)، (وفيليب بوشير ت ١٨٦٦ م فرنسي، ثم أوجست كونت ت ١٨٥٧ م، فرانسوا لورنت ت ١٨٨٧ م بلجيكي، قيصر بالبوت ت ١٨٥٣ م إيطالي، فيراري ت ١٨٧٦ م إيطالي، وهربرت سبنسر ت ١٩٠٣ م إنجليزي، وهنري باكل ت ١٨٦٢ م؛ صاحب كتاب تاريخ الحضارة في إنجلترا، إنجليزي، وروبرت فيلنت ت ١٩١٠ م إنجليزي، وهوايت، وهاريس، ورويس، وفيزيك الأمريكان، الذين كانوا عالة على المدارس الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية).

### أساسيات الرؤية الإسلامية للتاريخ

وفي ضوء هذا البحث الإنساني الدؤوب عن تفسير إنساني موضوعي للتاريخ يتبدى لنا أن من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح - وليس كل المفاتيح - لحركة التاريخ والكون.

وفي الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا - إنصافاً لرسالتهم وحضارتهم - بجهودهم في مجال فلسفة كونية وتاريخية أصيلة؛ تقوم على ركائز التصور الإسلامي الأساسي... إنه ليس حقهم فحسب، بل إنه واجبهم كذلك.

(١) المرجع السابق، ص: ٢٧٠.

لقد أدلى النصارى بما لديهم . . . وهم - واليهود - يشكلون رؤية دينية للتاريخ ينقصها المشروع الحضارى والصلة الوثيقة بالواقع . . . وقد أفرز هذا التصور مادية مغرقة كانت رد فعل للاستغراق اللاهوتى ، وكلا التفسيرين أغفل عناصر أساسية ، ولم يستطع تصور النسيج الكامل والمحكم والمتوازن والمتشابه للعملية الحضارية . . . وكلاهما عمق الرؤية فى جانب على حساب الجوانب الأخرى ، وبالتالي فالتفسيران المثالى واللاهوتى عاجزان !!

\* والنظرة الإسلامية للتاريخ تتميز عن غيرها بأنها تؤمن بثبات الفطرة الإنسانية ، وثبات السنن الكونية التى تتحرك الأحداث فى داخلها وبمقتضاها . . .

فالرؤية الإسلامية تؤمن بأن الجانب المعرفى يتطور فى الإنسان ؛ ولكن مع بقاء عناصر ثابتة يتلقاها الإنسان عن الوحي ؛ ولا يستطيع إدراكها بعقله وحده . . .

\* \* \*

\* وقراءة التاريخ - من جانب آخر - لا تقتصر على حياة الحكام ، وأخبار الوقائع والحروب ؛ بل لا بد أن تصل إلى نسيج الحياة من خلال الدراسة الجادة للحياة الاجتماعية ، والفكرية ، والاقتصادية . . .

\* والتصور الإسلامى يرى أن الجانب المعرفى ، والفكرى يتطور فى الإنسان مع حاجته إلى ضوابط وعناصر تكمله ؛ لأن هناك معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها من الوحي لا من العقل الذى هو - بطبيعة محدودية طاقته - عاجز عن إدراك تفصيلاتها . . . وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها . . .

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعمل العقل فى مساحة واسعة : كونية واجتماعية ؛ يستطيع من خلالها تسخير الكون ؛ ومجالات العلوم ، والفنون ، والآداب ، وفقه النفس الإنسانية ، والطاقات الإنسانية المختلفة ، واستكشاف عظمة الله من خلال تدبر آلائه وآياته فى الكون والنفس ، ومن ثم استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية .

ومن الجدير بالذكر - وقبل الوصول إلى مرحلة استخلاص القوانين - ضرورة قراءة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية قراءة فاحصة؛ بل إن تركيز تفسير الحركة التاريخية يجب أن يتجه إلى قراءة الجوانب السالفة الذكر، والتي لم تأخذ حقها من التاريخ، مع أنها التاريخ الأجدر بالاهتمام... ومع أن أبطالها وقادتها هم صانعو الحضارة الحقيقيون.

والحق - عند النظر الفاحص - أن التاريخ السياسي، والعسكري قد يشكل عبئاً على حركة الحضارة... فقليل من الحكام كان صالحاً، وقليل من المعارك كانت ذات فائدة، أو كانت موجهة دفاعاً عن المثل العليا أو لحماية الحق، وأكثر المعارك كانت لخدمة أطماع توسعية، أو لخلافات شخصية بين أمزجة الحكام، كما أنها كانت تتم بأساليب همجية لا يقرها الوحي الإلهي، ولا العقل الصحيح!!

إن تاريخنا ليس فرداً في هذا المجال... فمعظم تواريخ العالم - إن لم يكن كلها - يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها: أباطرة كانوا، أو قياصرة، أو كياصرة، أو ملوكاً فراعنة... إن معظم هؤلاء كانوا كالديدان التي تعيش على أفضل ما في الجسم وتقتله في آن واحد.

فكيف يصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها...؟!؟

وإن عظمة كثير من الحضارات - وعلى رأسها الحضارة الإسلامية - أنها بقيت بالرغم من الفساد الذي يجلبه هؤلاء!! إن التنظير الإسلامي الحضاري للتاريخ ضرورة للمسلمين وللإنسانية كلها... وهو - في الوقت نفسه - حق للمسلمين، وواجب عليهم... وعندما نتجه - عملياً وبصورة جماعية - للبحث في أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه، والأدب، والرجال، والطبقات؛ باذلين معظم الجهد في التعرف على حياتنا الحضارية التي تقوم على الفكر والثقافة والعلم - أولاً - وعلى النشاط الاجتماعي - ثانياً - والنشاط الاقتصادي - ثالثاً - والنشاط السياسي والعسكري - رابعاً -!!

ومن الواجب أن نصهر كل هذه الفعاليات فى بوتقة واحدة ؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة المعاشية كلها، مراعين فى الوقت نفسه النسبة المحددة لكل نشاط وأثره فى الحضارة، ومراعين ترتيب العناصر وفق أولويتها، والنسب المحددة لها .

\* \* \*

ويتضح لنا كيف أننا ظلمنا تاريخنا الحضارى، وأعطينا الساسة والعسكريين أكثر من حقهم عندما تتأمل هذه العبارة التى كتبها أحد المفكرين وهو يتحدث عن الكنوز المنسية والمظلومة الموجودة فى تراثنا التى أهملت بسبب طغيان الجانب السياسى والعسكرى . . .

### يقول الكاتب :

«لو أنى بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل أسبوع عن عَلم من أعلام المسلمين، أو أعرض عليهم قصة من قصص بطولاتهم وعبقرياتهم لما انتهيت، ولما قاربت الانتهاء . . . وكيف؟ وعندى فى مكتبة بيتى الصغيرة أكثر من خمسين مجلداً فى تراجم الرجال، لو أن فى كل مجلد منها مائة ترجمة لكان فى ذلك وحده خمسة آلاف ترجمة، لخمسة آلاف عَلم من أعلام الإسلام، وما ليس عندى من كتب التراجم أضعاف ذلك .

ثم إن فى كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافاً أخرى لم تفرد فى كتب التراجم»<sup>(١)</sup> .

إن صفحة من صفحات حضارتنا - ومثلها عشرات الصفحات - لم تكتب من منظور حضارى كما ينبغى أن تكتب . . إنها صفحة القضاء، والقضاة، هؤلاء الذين كانوا الحكام الاجتماعيين للشعب، وكان الحكام كثيراً ما يخضعون لهم . . . وعلى امتداد العصور الإسلامية، وقبل العصر الثورى المدمر اشتهر القضاء بالقوة، والعدل، والورع، وتطبيق الشريعة بلا مجاملة أو محاباة .

(١) الشيخ على الطنطاوى : قصص من التاريخ (المقدمة)، طبع بيروت .

كان محمد بن عمران قاضي مكة، فادعى لديه جمال على أمير المؤمنين العباسي، أبي جعفر المنصور، فبعث إليه (مذكرة جلب) فجاء في خوف وطميلسان ما عليه من شارات الإمارة شيء، حتى وقفه بين يديه مع الجمال !!

وكان شريك قاضي الكوفة، وادعت لديه امرأة مجهولة على الأمير الخطير ابن عم الخليفة، وثاني رجل في الدولة بعده عيسى بن موسى، فحكم عليه حكماً غيائياً، فامتنع الأمير من إنفاذه وتوسل إليه بكاتبه، فحبس القاضي الكاتب؛ لأنه مشى في حاجة ظالم، فاستعان عليه بجماعة من وجوه العراقيين من إخوان القاضي، فساقهم جميعاً إلى الحبس، فغضب الأمير، وبعث من أخرجهم، عند ذلك - عصفت نخوة الشرع في رأس القاضي، وأخذته عزة الإيمان فقال: «والله ما طلبنا هذا الأمر (يعني المنصب)، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم». ثم ختم قمطره، وجمع سجلاته، واحتمل بأهله وتوجه نحو بغداد، ووقعت الرجفة بالكوفة لما علمت بخروج القاضي، حتى خاف الأمير على سلطانه، فلحق بالقاضي يناشده الله أن يرجع، فقال القاضي: «لا والله حتى يُرد أولئك إلى الحبس فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت»، فبعث الأمير أن يرجعهم إلى الحبس، والقاضي واقف ينتظر حتى جاء الخبر بأنهم قد أرجعوا، فقال القاضي لغلامه: «خذ بلجام فرس الأمير وسقه أمامي إلى مجلس الحكم في المسجد»، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة، فلما انتهت المحاكمة، وحكم لها عليه نهض فسلم عليه بالإمارة، وقال له: «هل تأمر بشيء؟» فضحك الأمير، وقال: «بماذا أمر؟ وأي شيء بقي؟» قال له شريك: «أيها الأمير، ذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب»، فقام الأمير، وهو يقول: من عظم أمر الله، أذل له عظماء خلقه !!<sup>(١)</sup>.

وكان القضاة إذا عقدوا مجلساً للقضاء، لا يفضلون صاحب قضية على آخر، بناء على مركز صاحبها، ومن أخبار القاضي (عمر بن عبد الله) أنه كان إذا جلس أمر من كانت عنده خصومة أن يكتب اسمه في رقعة، ثم يجمع هذه الرقاع

(١) على الطنطاوي: فكر ومباحث، ص: ١٠٤-١٠٥، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت.

ويخلطها بين يديه، ويدعو بأصحابها الأول فالأول، حسبما تخرج يده من رقعاً<sup>(١)</sup>.

وقد وقف بين يدي المأمون وهو في مجلس المظالم رجل يتظلم منه نفسه؛ فتراداً الكلام ساعة فما اتفقا، قال المأمون: فمن يحكم بيننا؟، قال: الحاكم الذي أقمته لرعيك (يحيى بن أكثم)، فدعاه المأمون فقال له: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية (أى فى دعوى)؟ قال: نعم. قال القاضي: لا أفعل. فعجب المأمون، وقال: لماذا؟ قال يحيى: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء، فإن كانت له دعوى فليأت مجلس الحكم (أى المحكمة). قال المأمون: قد جعلت دارى مجلساً للقضاء. قال: إذن فإنى أبدأ بالعامه ليصح مجلس القضاء (وتكون المحاكمة علنية). قال المأمون: افعل. ففتح الباب، وقعد فى ناحية من الدار، وأذن للعامه، ونادى المحضر، وأخذت الرقع (أوراق الدعوة والإعلان) ودُعى الخصوم على ترتيبهم حتى جاءت النوبة إلى المتظلم من المأمون، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين (المأمون)، فنادى المحضر: «عبد الله المأمون»!! فإذا المأمون قد خرج فى رداء وقميص وسراويل فى نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى، ويحيى جالس فقال للمأمون: اجلس!! فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه، فمنعه القاضي حتى جاء بمصلى مثله، فبسط للخصم وجلس عليه<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن معظم القضاة يتجه للقضاء رغبة فى كسب المال أو المركز؛ وإنما كان اتجاههم للقضاء رغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - القاضي (أحمد بن محمد بن خلف الملقب بأبى القاسم الحوفى الإشبلى)، فقد كان يسترزق أثناء القضاء من عمل يده، وكان القاضي ابن سمالك الهدانى عندما تولى القضاء يقوم بحاجته اليومية بنفسه، فكان يكسر الحطب على باب داره والناس من حوله يختصمون إليه ويسألونه<sup>(٣)</sup>.

(١) الخشنى: قضاة قرطبة، ص: ١٤٩، بيروت.

(٢) على الطنطاوى: فكر ومباحث، ١٠٥/٢، ١٠٦، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت.

(٣) الخشنى: قضاة قرطبة، ص: ٥٧.

ومن الوزراء يقدم لنا مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) نموذجاً للوزير العالم الزاهد في الحكم وفي الدنيا، فقد خدم الأتابك عز الدين بن مودود وولده نور الدين أرسلان شاه فصار واحداً دولته لدرجة أن نور الدين كان يقصد منزله ليستشيره عندما أقعد بسبب المرض في آخر زمانه. وقد كاد طبيب مغربي أن يصل به إلى الشفاء من مرض النقرس، وأشرف على الشفاء الكامل؛ لكنه صرف الطبيب عن إتمام العلاج، وقال لأخيه عز الدين عندما عاتبه على طرد الطبيب الذي ظهر نجاحه: إنني في راحة من صحبة هؤلاء القوم (يعني الأمير والحاشية) وقد سكنت روحى إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذل نفسي بالسعى إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلى فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءونى بأنفسهم لأخذ رأيى، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته ولم يبق من العمر إلا القليل فدعنى أعش حراً سليماً من الذل، وقد أخذت منه أوفر حظ.

وهكذا لزم الرجل بيته صابراً محتسباً يغشاه الأكابر والعلماء، وكان قد أنشأ رباطاً بقرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب) ووقف أملاكه عليه وعلى داره التي كان يسكنها بالموصل<sup>(١)</sup>.

وقد عمّر علماؤنا الحياة بالعلم والعمل، وكانوا - مع ذلك - زاهدين في الدنيا؛ زهد القادرين لا خضوع المستسلمين المنهزمين... وقد جاء بعض من أرخوا لهم فظلموهم وصوروهم وكأنهم صوفية متواكلون؛ يعيشون بلا عمل ويعتمدون في حياتهم على الصدقات، مع أن الزهد بمعنى التوكل، والكسل لم يكن في الزهاد المخلصين؛ وإنما اتسم به نفر من أدعياء التصوف من الجهلة والعوام...

كلا... فما كان صناع حضارتنا كذلك، وما فهموا الزهد إلا بمعنى الثراء والاستعلاء، وما فهموا العبادة إلا بمعناها الكونى الفسيح الذى يسخر الدنيا لراية التوحيد...

(١) د. محمود الطناحى: مقدمة تحقيق منال الطالب فى شرح طوالب الغرائب لابن الأثير، طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣م، ص: ١٦-١٨ بتصرف.

ولقد جرت محاوراة بين اثنين من كبار الصالحين وضّحت هذا التصور الصحيح، فقد قال الفضيل بن عياض لعبد الله بن المبارك (رضى الله عنهما) :  
 أنبت تأمرنا بالزهد ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، فكيف  
 تأمرنا بشيء وتفعل خلافه؟ . فقال له عبد الله بن المبارك : يا أبا على أنا أفعل هذا  
 لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي . . . ولا أدري  
 الله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به (١) !!

فألزهد أن تكون قادراً غنياً ثم تزهد وتعطى . . . لا أن تكون خاملاً فقيراً تأكل  
 من أوساخ الناس وصدقاتهم .

وكان الليث بن سعد فقيه مصر وعالمها الأكبر في عصر هارون الرشيد،  
 وكان مع ذلك من أثري أثرياء عصره، وكان زاهداً كريماً . . . ويروى أن  
 الخليفة (هارون الرشيد) بعث إلى الإمام مالك بن أنس بخمسمائة دينار فبلغ  
 ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب الرشيد وقال له : كيف تعطيه  
 أكثر مني وأنت من رعيتي؟ فقال له الليث : إن لى من غلتي كل يوم ألف دينار  
 فاستحييت أن أعطي مثل هذا الإمام أقل من دخل يوم (٢) .

وقد ورد في ترجمة الإمام أبي حنيفة النعمان أنه كان تاجر أقمشة مع شريك  
 اسمه حفص فباع شريكه لأحد الزبائن ثوباً فيه عيب، ولم يخبره بعيبه، ولم  
 ينقص له الثمن، بل استوفى منه الثمن كاملاً، فلما علم أبو حنيفة بذلك، راح  
 يبحث عن المشتري ويفتش عنه، وساعده شريكه في البحث والتفتيش فلم يقفأ له  
 على أثر ولم يعثر عليه، فعندئذ رفض أبو حنيفة أن يقبل ثمن الثوب ولم يضمه  
 إلى ماله بل تصدق به كله، وفسخ الشركة مع شريكه احتياطاً لدينه .

وكان يونس بن عبد الجليل من كبار علماء العصر العباسي، وكان صاحب  
 متجر لبيع الأقمشة والثياب، وقد رويت عنه قصص دالة على النهاية في الورع،  
 والروعة في الإخلاص في البيع والشراء (٣) .

(١) نقلًا عن: ناجي الطنطاوي : كلمات نافعة، ص : ٢٢١، دار المنارة، جدة، سنة ١٤٠٨ هـ .

(٢) المرجع السابق، ص : ٢٢٩ بتصرف .

(٣) المرجع السابق، ص : ٢٤١، ٢٤٢ .

وكان كثير من القضاة والفقهاء والمحتسبين ذوى شجاعة وتدريب على فنون القتال، وقد ذكرت كتب الرجال كثيراً من هؤلاء؛ نورد منهم هنا (الفرج بن كنانة)؛ أحد كبار القضاة فى قرطبة الذين قادوا الجيش وجاهدوا مع المجاهدين، وقاموا فى الوقت نفسه بدور اجتماعى كريم. ومنهم أيضاً الفقيه القاضى المعروف (أسد بن الفرات) فى تونس.

ويعتبر الإمام ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ)، والإمام أبو محمد على بن حزم (٤٥٦هـ)، والإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الكبرى والهمم العالية التى ندر وجود مثلها فى الحضارات فى عصور كانت تخلو من كثير من الوسائل المساعدة الحديثة... يعتبر هؤلاء ظاهرة تحتاج إلى رصد واستقصاء، ودراسة موضوعية لأسباب هذه العبقريات - كيفاً وكماً - وأسباب هذا العطاء العملاق.

ويقول الطبرى عن نفسه: حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع. وقد قسم ما ألفه الطبرى أيام عمره منذ ولد فكان أربع عشرة ورقة كل يوم!! وكان ابن حزم ثانى مؤلفى الإسلام، وقد ألف أكثر من أربعمئة كتاب ورسالة.

وتقع فتاوى الإمام ابن تيمية فى أكثر من خمسة عشر ألف صفحة، ويقع كتابه (درء تعارض العقل والنقل) فى أكثر من عشر أجزاء فى الطبعة المحققة، بالإضافة إلى عشرات الكتب الأخرى التى تصل إلى آلاف الصفحات؛ فضلاً على جهاده المعروف ومعاركه ضد البدع والأهواء.

وقد كان علو الهمة وقوة الإرادة، والعمل الدؤوب شاغلهم الأشغل.

والإمام ابن الجوزى يقول عن نفسه: نظرت إلى علو همتى فرأيتها عجباً وذلك أنى أروم نيل كل العلوم، وأروم نهاية العمل بالعلم مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق، وأروم الغنى عن الخلق؛ والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع نفس فى غير فائدة<sup>(١)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص: ٢٦٠.

إن هؤلاء - وآلاف مؤلفة غيرهم - هم الذين صنعوا حضارتنا، وهم الذين يقدمون لنا أبرز ملامح الرؤية الإسلامية للتاريخ !! (وليس الساسة أو العسكر)!!

\* \* \*

وفى نهاية هذا الشوط يجب أن نكون واضحين فى موقفنا من أنفسنا، ومن الآخرين . . فهل نحن مجرد شريحة من شرائح الجنس البشرى لا تتميز بشيء، وهمها الأكبر أن تصل إلى التقدم والرفاهية، وبالتالي يمكننا - إذا كان ذلك ممكناً - أن نحطم كل شيء فى سبيل هذا الهدف العاجل والظرفى، أو أننا شريحة من الجنس البشرى تمثل (قلب) هذا العالم (وضميره) وأن مهمتنا فى التاريخ أن نضم (العقل) إلى القلب والضمير بحيث نقدم صياغة حضارية تأخذ بما هو (معقول)، ومنتوج عقلى بحث من كل الحضارات، وتضم ذلك إلى (قلبها) و (ضميرها) فى نسيج متكامل متناغم؟!!!

إنه لا بد من توضيح موقفنا إذا شئنا أن نقدم رؤية علمية تنتمى إلينا وإلى حضارتنا فى تفسير التاريخ . . . فإذا آمننا بأننا مجرد شريحة من الجسم البشرى لا خصوصية لها فما علينا إلا أن نغضى وراء المدرسة التى تحمل أسماءنا . . . لكن قلبها وضميرها قد ضاعا منها، وأصبحت (كلاً) أوروبا لا يتجزأ، حتى وإن ظلت تزعم بأنها مسلمة وتحفظ بأسمائها العربية أو الإسلامية، ونموذج محمد أركون وتلميذه أحمد عبد المعطى حجازى، وعزيز العظمة، وماجد فخرى، وسعيد العشماوى، وحسين أحمد أمين وأمثالهم تناضل فى هذا الطريق، وتحاول أن تقضى على الثوابت والخصوصيات ؛ بحيث تفقد الأمة فى معركة الحضارة كل سلاح تستلهمه من ثوابتها، ومن تراثها وحضارتها، وتركع سريعاً (لفقدانها جهاز المناعة) أمام الشرائح الحضارية الأخرى التى تكون - فى النهاية - الجسم البشرى !!

\* \* \*